أثر التوسع العمراني على التجانس الثقافي في المجتمعات المحلية

دراسة مورفو -سيميولوجية لحي إغوزة والأحياء المجاورة له بمدينة غرداية

The Effect of Urban Extention on Cultural Homogeneity

A Morpho-Semiological Study of Igoza Neighborhood in Ghardaia City

محمد عبد النور[1،*]، عائشة نجار[2]

[1]جامعة غرداية (الجزائر)

[2]جامعة البليدة 2 (الجزائر)

تاريخ الاستلام :-2022-02-22 ؛ تاريخ المراجعة : 2022-04-18 ؛ تاريخ القبول : 2022-06-01

ملخص :

تهدف‌هذه الدراسة إلى تحليل أثر التغيّر في صورة العمران المادي على التجانس الثقافي في مدينة غرداية التي عرفت توسعا جغرافيا ملحوظا وغير منضبط بالشكل التقليدي نتيجة احتواء "النموذج الحضري" لمعظم أساليب الحياة في المناطق التقليدية؛ ولاختبار التصور المطروح تم افتكاك عينة نموذجية في مجتمعات المناطق الداخلية ذات السمة التقليدية، والتي حولت إقامتها من القصبات القديمة إلى المناطق الحضرية المعاصرة المجاورة لها، واخترنا بالتحديد لهذه الدراسة حي إغوزة وما جاوره من أحياء باعتبارها امتدادا وتفريعا للطراز التقليدي للسكن في قصبة غرداية العتيقة، فما هي مظاهر تفكك التجانس الثقافي التقليدي في حي إغوزة والأحياء المجاورة له؟

اعتمدت منهجية العمل على دراسة مونوغرافية للمنطقة باستخدام المنهج الكيفي مع اعتماد الملاحظة كأداة رئيسية لجمع البيانات من خلال تحليل سيميائية المحلات التجارية والخدماتية عبر مسح لافتات الطريق الرئيسية، وتحليل الخطاب مع التجار وكذا تحليل سيميائية اللباس؛ أفضت نتائج الدراسة في الأخير إلى تحليل ملامح الثقافة الجديدة بين التجانس و اللاتجانس الثقافي، فرغم بروز مؤشرات قوية على انتقال الثقافة المحلية حضريا واثنيا إلى حالة من اللاتجانس إلا أنها مازالت تحتفظ في عمقها بتجانس خفي غير ظاهر نفترض أنه متأسس على معطى "التجانس الفيزيولوجي" -الناتج عن الزواج الداخلي- الضامن لاستمرار التجانس الثقافي، فمادام العامل الفيزيولوجي قائما فإن اللاتجانس الثقافي، الذي هو غالبا مرحلة انتقالية في المجتمعات لإعادة الرسو مجددا على قواعد ومعايير جديدة، سيؤول في النهاية لنفس المبادئ التكوينية للجماعة المرجعية الأولى مادامت حاضرة باستمرار عبر "التجانس الفيزيولوجي".

الكلمات المفتاح : تجانس ثقافي؛ مورفولوجيا اجتماعية؛ سيميولوجيا اجتماعية؛ مجتمع محلي؛ إغوزة.

Abstract :

This study aimed to analyze the impact of urban expansion on cultural homogeneity in the city of Ghardaia, which experienced a significant geographic expansion undisciplined in the traditional manner, as a result of “the urban model’s containing” most of the lifestyles in the traditional areas. To test the presented perception, we chose a typical sample of a local community with a traditional character, which are in process of shifting from housing in the old Casbah to its surrounding urban areas. We specifically selected for this study Ighoza neighborhood and its environ, which is an extension of the traditional style of housing.

In the old Kasbah of Ghardaia. So what are the signs of the disintegration of traditional cultural homogeneity in the neighborhood of Ighoza and its environ?

Our methodology was based on a monographical study of the area using the qualitative method and observation as the main tool for data collection, through analyzing the semiotics of shops, and the discourse with the merchants, as well as the semiotics of the public dress.

Finally, the results showed signs of the new culture between homogeneity and cultural heterogeneity, despite the emergence of strong indications of the transition of the local culture to a state of heterogeneity, it still retains in its depth a hidden homogeneity that we assume is based on “physiological homogeneity” -occurred by internal amalgamation- that ensures the continuity of cultural homogeneity.

Keywords : cultural homogeneity; social morphology; social semiology; community; Ighoza.

I- تمهيد :

أضحى التوسع العمراني ظاهرة شاملة للمجتمعات الإنسانية في المرحلة الراهنة، وذلك لما طرأ من نمو ديمغرافي هائل بفضل تحسن الرعاية الصحية للمواليد بما جعل نسبة بقائهم على قيد الحياة كبيرة جدا مقارنة بالعهود السابقة، وكذا ما ترافق مع النمو الديمغرافي من وفرة تكنولوجية بفضل النمو الصناعي والتحكم في أدواته الذي يسّر عملية توسيع المجال الحضري للمدن، فلم يعد من المبالغة القول أن القاعدة الخلفية الموحدة التي على أساسها تتحرك المجتمعات غير الحديثة اليوم هي قاعدة ديمغرافية-تكنولوجية(*).

إن ما أدى إليه النمو الديمغرافي-التكنولوجي هو تغيير عميق في البنية المورفولوجية للمجتمعات غير الحديثة، ذلك أن البناء الاجتماعي القديم اعتمد في نشأته واستمراره على حجم ديمغرافي وتطور تكنولوجي منضبطين بما مكن من التجانس الثقافي السائد عبر آلية الضبط الاجتماعي المركزي، فقد اتسم زمن ما قبل الطفرتين الديمغرافية والتكنولوجية بالرتابة التي مكنت النظام الاجتماعي-السياسي من فرض الضبط الصارم على الأفراد وتفكيرهم سواء بانقيادهم الطوعي أو بالسطوة القاهرة عليهم.

وعليه فإن تغير البنية المورفولوجية للمجتمع تشير إلى تفكك التجانس الثقافي في المجتمعات غير الحديثة (**)، وذلك ما كرسته سياسة تعميم الحق في التعلّم والاعلام لجميع أفراد المجتمع، فالعامل التعليمي يؤدي خاصة إلى تفكيك الأنماط الثقافية العتيقة من حيث تعليم قواعد الحساب ونحو اللغة وما إلى ذلك بما يؤدي إلى فردانية الاختيار والذوق، وأما الإعلام فيؤدي إلى تفكيك النمط السلطوي التقليدي من حيث تشكيل بدائل توجيهية متعددة تؤدي إلى تعدد الخيارات العملية والسلوكية؛ كما أسهمت كل من العولمة والحريات والانترنت من بين عوامل أخرى على إضعاف الحدود الثقافية بين المجتمعات، ويسرت بشكل غير مسبق التدفق الثقافي للبشر والمعلومات والأفكار عبر اختراق الحدود الثقافية **(Sunder، 498 p497 ,2001)**.

والمحصّلة فإن التغير في صورة العمران المادي (=المورفولوجيا الاجتماعية) التي عرفت توسعا جغرافيا ملحوظا وغير منضبط بالشكل الحضري التقليدي يعدّ العنوان الرئيسي للتغير الاجتماعي في شقيه الثقافي والسياسي، ولاختبار التصور المطروح لابد من افتكاك عينة نموذجية في مجتمعات المناطق الداخلية ذات السمة التقليدية التي تتمثل في التحول من السكن في القصبات القديمة إلى المناطق الحضرية المعاصرة المجاورة لها، واخترنا بالتحديد لهذه الدراسة حي إغوزة وماجاوره من أحياء والتي تعتبر امتدادا وتفريعا للتجمع السكني التقليدي الأساسي في قصبة غرداية العتيقة، فما هي مظاهر تفكك التجانس الثقافي التقليدي في حي إغوزة والأحياء المجاورة له؟

I.1- المورفولوجيا الاجتماعية: تستند الحياة الاجتماعية إلى أساس يحدد شكلها ومقدارها، إذ تتكون من مجموعة أفراد ينتظمون في الواقع وفق شكل معين من العلاقات الاجتماعية يكون تبعا لحجم عدد السكان ومدى تمركزهم أو تفرقهم، وكذا مدى اتساع المجتمع والحدود التي تحده، فضلا عن طرق المواصلات التي تمتد داخله، وتبعا لذلك تتحدد طبيعة المجتمع **(هالبواك، 1986، ص13).**

وفي طرحه لمفهوم المورفولوجيا الاجتماعية رأى دروكايم أنه مجال بحث واعد في تحليل البنى المرتبطة بتطور تصنيفات الجماعات والتجمعات البشرية، لكن ورغم أن الكثير من اهتمامات علماء الاجتماع الراهنة تحتاج للانتباه الشديد إلى السياقات الزمانية والمكانية للتجمعات البشرية، إلا أنه لم يشتغل بهذه المقاربة إلا القليل من علماء الاجتماع، بينما نجد أن تصنيف التجمعات البشرية يستقطب الاقتصاديين والجغرافيين بشكل أكبر (**Schore**، 1958، **p633**).

I.2- السيميولوجيا الاجتماعية: يهتم علم العلامات الاجتماعي بدراسة الممارسات ذات الدلالة التي تحصل ضمن سياق اجتماعي معين، وذلك بربطها بالأوضاع التي أنتجتها، وهي لا تكتفي بتأويل الدلالات، فالحياة التي يعيشها الإنسان والكون الذي يحيط به مليء بالعلامات التي تواجهه دون قدرة على النفاذ إلى دلالاتها، فنحن نعيش وسط أنظمة من العلامات يتواصل الإنسان ويمارس حياته ويأتي أفعاله من خلالها **(بوعزيزي، 2010، ص15).**

وإن استخدام السيميولوجيا في علم الاجتماع يمكّن من التنبه إلى ما في الظواهر من علامات اجتماعية كامنة، وهذه الإضافة تغذي السوسيولوجيا بجوانب كانت غائبة، وتعقيد معنى العلامات، يعبر عنه تودوروف بأنها من أدق المفاهيم وأصعبها تحديدا (عماد، 2007، ص85)، وعليه أصبح ممكنا ممارسة التحليل السوسيولوجي بواسطة استنتاج الدلالات التي تشير إليها الرموز الاجتماعية، وهذا يفيد في ربط الواقع الاجتماعي المتحرك بالدلالات الثابتة نسبيا في المجتمع، وهو ما يجعل من التفسير الاجتماعي قائما على وضوح التصور بناء على المؤشرات الصريحة للرموز الاجتماعية.

I.3- التجانس الثقافي: يشير التجانس الثقافي أو الأحادية الثقافية في آن واحد إلى: أ- وصف مجتمع مهيمن عليه بأغلبية ساحقة، ب- الأيديولوجيا التي تؤكد على أهمية أن تسود في المجتمع ثقافة مهيمنة، المجتمع الأحادي الثقافة يسعى للحفاظ على تجانس ثقافته، ويتوقع من أفراده الذين يقيمون داخل حدوده الانصهار في قيم تلك الثقافة ومعاييرها؛ ولهذا فإن المجتمعات الأحادية الثقافة تضبط حدودها بشكل صارم، وتسمح فقط بانخراط الذين يعتبرون قادرين على الانصهار داخلها، والمجتمع المتجانس ثقافيا لا يعني بالضرورة أنه متجانس عرقيا، على أنه عمليا وفي الأغلب هو كذلك. **(Farquharson and Karen ، 2009 ،p03)**، وبخصوص التحولات الراهنة يصف أبادوري انتقال الوضع الثقافي للعالم الذي نعيش فيه بأنه تحول من الحدود الجغرافية المغلقة، والمكان المحدود، واللاوعي التاريخي والتجانس الثقافي إلى وضع أصبحت فيه الثقافات قليلة والنقاشات كثيرة داخل الثقافات، فقد كشفت الحداثة عن طرق بديلة للحياة ونمط العيش.**(Sunder، 2001، p498).**

I.4- ميدان البحث: أصبح حي إغوزة والأحياء المجاورة له الحديثة النشأة، مركزا حضريا يحتضن جميع المرافق الإدارية والاقتصادية والثقافية والدينية، ولا يقتصر الأمر على توفير الحد الأدنى لساكنيه إنما أصبح قطبا حضريا حتى لغير ساكنيه بفضل مزاياه التجارية والإدارية، وهو يعتبر نموذجي في دراستنا لكونها ذات بعد مقارن مع حي القصبة العتيقة، أي لنفس الجماعة الاثنية وهم المزابيون كمجتمع عرف بتجانسه المورفولوجي والفيزيولوجي قبل تجانسه الثقافي-الاجتماعي، فتجانسه المورفولوجي يظهر في القصبة القديمة التي يحيط بها السور، وهي ذات منازل متجانسة في الهندسة والبناء، ومتراكبة بشكل أهليجي من ذورة الجبل إلى سفحه، أما تجانسه الفيزيولوجي فيتجسد في الزواج الداخلي لذكوره وإناثه بما أنتج وحدة إثنية مجسدة في روابط القرابة العائلية والتجانس الثقافي الوطيد نتج عنه نظام عشائري ما يزال حاضرا في الواقع الفعلي للمزابيين.

تمتد منطقة إغوزة وماجاورها من جسر الحمرية جنوبا إلى منعرج قارة الدباش شمالا، ومن حي كركورة شرقا إلى حي انتيسا غربا، ويغطي ذلك مساحة قدرها (1.2كلم^2)، حيث تحيط بطرفيها الشرقي والغربي الجبال، ويتوسطها مجرى وادي مزاب وطريق الواحة الرئيسي الذي يقسم حي إغوزة -ميدان عينة الدراسة- إلى قسمين، وكذا المنطقة الممتدة من حي أحباس إلى غاية حي عوقبة على حدود حي بن اسمارة، إضافة إلى منطقة النشاطات اعبازة الواقعة في الجهة الشمالية للحي. **(الشكل 02 في الملحق)**

إذ تمتد المناطق السكنية من وراء الشارع الرئيسي إلى الجهتين الشرقية إلى ضفة الوادي وتستمر من الضفة الثانية إلى الجبال، وأما من الشرقية فتمتد إلى غاية الطريق الرئيسية الشواهين وتستمر إلى غاية الجبال أيضا، حيث الملاحظة الأساسية هي أن الوادي "واد مزاب" أصبح ثانويا بالنسبة لنشاط سكان المدينة، وذلك لتحول مركز الاهتمام من الفلاحة إلى التجارة والصناعة، فحي إغوزة وما جاوره أصبح مركزا حضريا يضم مختلف المرافق الخاصة والعمومية التي تؤسس لـ"مجتمع محلي" مستقل ذاتيا عن بقية المناطق، يستطيع الفرد قضاء كل حاجياته في الحي دون الحاجة إلى الخروج منه حسب تعريف ماكيفر وبيدج، وقد ساهم في ذلك تعبيد الطريق الرابط بين القصر القديم والواحة وبقية المناطق، والتي تقع داخلها منطقة إغوزة، ما جعل منها مركزا تجاريا وسكنيا مهما في المدينة.

وعليه، تضم منطقة إغوزة وما جاورها خمسة أحياء سكنية هي: عوقبة، كركورة، صالوحة، بلغنم، الشواهين، وهي الأحياء التي رسمت الشكل والحجم المورفولوجي لمدينة غرداية على امتداد حوالي 02 كلم، حيث من المميزات المورفولوجية لمدينة غرداية هو كونها ذات طابع خطي حيث التبعية لمسار وادي مزاب والذي تحده الجبال على امتداد طويل، إذ يقع التمدد

العمراني بين ضفتي الوادي إلى حدود الجبال، وهو ما جعل من التوسع العمراني توسعا خطيا يميز المدينة، **(الجدول رقم 03 في الملحق)**

تقدر الكثافة السكانية لولاية غرداية الحاصلة عن إحصاء 2008 والمقدرة بـ 5.67 نسمة في الكلمتر المربع حيث بلغ عدد السكان في نفس السنة 363598 نسمة، ويمكن تقديرها حاليا بـ 500000 نسمة، بينما مساحة الولاية مقدرة بـ 86105 كلم^2 (ويكيبيديا، بلا تاريخ)، يمكن تقدير إجمالي عدد سكان منطقة إغوزة وماجاورها حاليا بخمسين ألف نسمة (50000ن)، كما يمكن تقدير عدد السكنات بعشرة آلاف سكن (10000م)، أي بمعدل خمس (05) أفراد في كل مسكن، وهو معدل متوسط في سلم عدد أفراد العائلة الواحدة مع اختلاف كيفي أي يمكن أن يصل مقدار الانحراف المعياري إلى نسبة 100% أي فرد في مسكن وعشرة في آخر، وعليه يمكن تقدير نسبة السكان في منطقة إغوزة من مجموع سكان غرداية بـ10%، بينما نسبة المساحة الجغرافية لمنطقة الدراسة من مجموع الولاية هو 512.10 هكتار، وهذا طبعا دون احتساب التغيرات الحسابية التي نتجت بعد استقلال بلدية المنيعة عن الولاية بعد التقسيم الولائي الجديد لسنة 2021.

وهذا ما يعطينا صورة عن نسبة النمو الديمغرافي والكثافة السكانية المتزايدة، وهو ما يجعل من الحركية العمرانية (المورفولوجية) للمنطقة والمدينة عموما في تحول ونمو مطرد، وهي الحركية التي نفترض أنها ذات أثر على التجانس الثقافي الذي سيزداد ضعفا بحكم التوسع الجغرافي والنمو الديمغرافي، مع التنبه إلى الخصوصية الطوبوغرافية للمنطقة التي تتحكم في التوسع، فهو توسع خطي وليس دائري، حيث يفترض أن يفرز التوسع الدائري نتائج مختلفة من الناحية الاجتماعية والثقافية مما لو كان توسعا خطيا يحد من إمكانات التحول والتغير الاجتماعي.

II - الطريقة والأدوات :

II.1- المنهج الكيفي :المنهج الكيفي من أساليب التجريب العلمي، يعتمد على معالجة الوقائع الفعلية -في الحاضر أو الماضي- بواسطة مدارك الباحث من خلال محاولة الفهم والتصنيف والمسح لكل ما يمكن مشاهدته عينيا أو ملاحظته عقليا، "وهذا الأسلوب هو الذي اعتمد عليه كبار المنظرين في العلوم الاجتماعية"**(عماد، 2007، ص233)**، واستطاعوا من خلاله وضع قوانين ونظريات اجتماعية، بفضل استقراء العديد من الوقائع والأحداث وذلك في شكل تجارب طبيعية؛ ويأخذ الباحث في بحثه من البيانات بالقدر الذي يكفيه للفهم ثم الاستدلال ثم الاستنتاج بما يفيد تعقد (أو صعوبة) المنهج الكيفي **(عماد، 2007، ص233).**

II.2- تقنية الملاحظة :هي تقنية مباشرة للتقصي، تستعمل لمشاهدة مجموعة اجتماعية ما بشكل مباشر بهدف أخذ معلومات كيفية لفهم المواقف والسلوكات **(أنجرس، 2004، ص184)**، ولا نكون مطالبين عند استعمال الملاحظة بسحب عينة، فعندما نختار مجموعة ما لملاحظتها في مجتمع ذي كثافة سكانية فإن الأمر سيتعلق بـ"انتقاء" من عدد أكبر، أي أننا قمنا بالفرز لنصل أخيرا إلى اختيار مؤسسة أو حي، "إننا سنوجه اهتمامنا إلى مجموعة من جملة عدد من المجموعات من نفس النوع... يكفي وصف المجموعة المنتقاة وإعطاء مقاييس الانتقاء والإشارة إلى ما يجعلها نموذجا في نوعها"**(أنجرس، 2004، ص321).**

المشاهدة نشاط عابر ومحدود، أما الملاحظة فهي تتجاوز الحواس المباشرة إلى الاستنتاج العقلي، وتبقى المشاهدة وسيلة للملاحظة، فالمشاهدة تعتمد على ما تعاينه الحواس، لكن ليس كل ما تعاينه الحواس حقيقة، فالظاهر قد لا يعبر بشكل مباشر عن القصد الإنساني، والملاحظة ترتبط بالظرف المكاني والزماني، حيث المظاهر (مثل اللباس) تشاهد أما البواطن (مثل الذوق) فهي لا تشاهد إنما تستنتج، مثلما يمكن أن نستنتج الذوق من اللباس، ولا تقتصر الملاحظة على الصور والأشكال بل تتعداها إلى المعاني والألفاظ والآثار **(عماد، 2007، ص68).**

وعليه، فقد جاءت الاختيارات المتقدمة لتناسب ميدان الدراسة الذي اخترناه كعينة نموذجية يمكن تعميم نتائجها، باعتبار نموذجية حي إغوزة وما جاوره من أحياء من الناحية الحضرية وذلك من زاويتين، الأولى من حيث كونه حيا من أحياء مدينة

غرداية كمقاطعة إدارية تنتمي إلى نمط التسيير والدولة الحديثين، وأيضا كونه حيا يضم غالبية سكانية متجانسة إثنيا، وهذا يعني أن مجتمع البحث مركب موروفولوجيا من جانبين حديث وتقليدي، وهو ما يقع في صلب إشكالية الدراسة المتعلقة بالتحول من النمط التقليدي إلى النمط الحديث.

3.II- ملاحظات استطلاعية لمنطقة الدراسة: اعتمادا على أداة الملاحظة الاجتماعية، ولغرض الدراسة السيميائية لمجتمع البحث تم مسح لافتات الطريق الرئيسية في حي إغوزة -بتسجيل التسميات الرئيسية للمحلات ونوع اللافتة واختصاص المحل ومجاله وصنفه، مما سنبينه فيما يأتي من التحليل- وذلك لمسافة قدرها 0.7 كلم، من مفترق طرق الحمرية إلى تارجا نيغوزا، وهو جزء من الطريق الرئيسية لمنطقة هذه الدراسة الممتدة على مسافة 1.4كلم **(الشكل 01 في الملحق)**، والممتدة من مفترق طرق الحمرية إلى محطة قارة الدباش، وانتهينا إلى جرد 128 لافتة محل، لكن قبل عرض المسح من المفيد أن نعرض هنا بعض نتائج حديثنا إلى بعض التجار في الطريق الرئيسية.

من خلال محاورة استطلاعية وعشوائية إلى بعض البائعين في المحلات أكدوا أن الزبائن الذين يقصدون المنطقة الحضرية إغوزة ليسوا من سكان الحي فقط إنما يأتون أيضا من الأحياء البعيدة، وذلك في رأيهم -وهو ما يمكن استنتاجه أيضا- كونها أصبحت مركزا تجاريا يتوفر على أغلب أنواع التجارة والخدمات، فهي منطقة عبور تصل عدة مناطق بوسط المدينة مثل أحياء الواحة والتوزوز وبلدية الضاية، لكن أيضا يقصدها الكثير من الزبائن لذاتها، ففضلا عن توفر موقف قريب وسهل للسيارات والمراكب عامة، ووجود مسجد كبير في قلب الحي على الشارع الرئيسي، فهو يحتضن بعض المحلات ذات الميزات الجاذبة كالجودة والحصرية وغيرها، ما يجعلها قبلة لزوار الحي من خارجه، فضلا عن إقبال سكانه على استهلاك وجبات المطاعم الذي يعبر عن تفكك التقليد المحلي في استهلاك الغذاء ووجباته .

من مميزات الحي مطعم مختص في تحضير أطباق نوعية وهو ما تنافسه فيه مطاعم أخرى من نفس الاختصاص، علما أن المنطقة في مجملها لا تحتوي على المطاعم الكلاسيكية التي توفر مساحات واسعة ومهيئة لتناول الوجبات فهي تبيع الوجبات للاستهلاك الخارجي ولا توفر إلا جلوس خفيف ولفرد واحد أو اثنين مع غياب تام للاستقبال العائلي، وهذا ما يمكن اعتباره -لحد الآن- من مظاهر التجانس الثقافي في منطقة الدراسة، ويمكن التعميم على باقي المناطق السكنية من باقي المكونات الاجتماعية للمدينة ذات النزعة الاجتماعية المحافظة، حيث المرأة في الأغلب ماكثة، وهي المسؤولة عن إعداد الوجبات، وهي كذلك حتى في حال عملها داخل أو خارج المنزل، على أن استحداث مطاعم الوجبات المحمولة مسألة محدثة تدل على ظهور سلوك اجتماعي-غذائي محدث متعلق بتناول أفراد الأسر وجباتهم خارج المنزل بشكل مفرد، وهو ما يخالف التلقيد الثقافي السائد، أو جلب الأسر نفسها للوجبات الجاهزة من المطاعم، على أنّ أصل المطاعم في المنطقة المدروسة وغيرها كانت أول الأمر لتقديم وجبات الحرفيين في الورشات وهو ما يزال سائدا فعليا لكنه كما يظهر أنه اتسع لينوب عن تحضير الوجبات في البيت، لكنه لم يصل بعد ليكون أيضا مقرا لتناول الوجبة بشكل رسمي ومريح وحتى عائلي.

أما كون محلات حي إغوزة جالبة للزبائن من غير الحي فهذا أيضا سيخلق نوعا من التعدد الثقافي فيه، وسيصل به إلى تعميم النزعة اللاشخصية في التعاملات التجارية وغير التجارية التي لاحظناها خلال الاستطلاع الميداني مع الباعة، ذلك أن سيطرة النزعة الربحية سيؤدي إلى فقدان الروابط العاطفية في المعاملة والتحادث وعمليات البيع والشراء، فضلا عن أن العلاقات اللاشخصية قد سبقت إلى الظهور حتى بدون حالة الاستقطاب الخارجي التي أصبحت متاحة بداية من بعد الخروج من أسوار القصبة العتيقة ووصولا إلى التميز التجاري.

وذلك للتحولات الثقافية والتربوية والسياسية والاجتماعية التي خضع لها الفرد المزابي، بفعل ما العوامل الرئيسة التي افتتحنا بها هذه الدراسة وهو النمو الديمغرافي الذي يدفع نمط التضامن العضوي وبالتبع نمط العلاقات الشخصية إلى التناقص، فحضور الأجنبي في الحي يؤثر بشكل غير مباشر وإضافة إلى عامل اللغة واللباس المختلف سيجلب معه نمط تعامل جديد إلى الحي بغض النظر عن درجة الأجنبية التي تتراوح بين الأجنبي المجاور للحي أو الساكن في المدينة أو القادم من مدينة

أخرى، وبالمقابل فإن التاجر سيجد في الوضع ميزة جديدة تضاف إلى تجارته سواء من حيث تكثير الزبائن أو من حيث التفضيل بين ذهنية الزبون المحلي وذهنية الزبون الأجنبي عن الحي.

4.II- نظرة مورفولوجية لمنطقة الدراسة: بدايات الحي ونشأته كمنطقة سكنية ثم تجارية -بعد أن كان مجموعة أراضي فلاحية- لم تخضع لأي تخطيط بقدر ما كانت عفوية وطبيعية، وتحكمت في سيرورة التوسع العمراني من القصر القديم نحو حي إغوزة آلية الاعتباط الفردي، فالعقارات تم تملكها إما عبر الإرث العائلي أو عبر الشراء الفردي، فضلا عن أن ما دفع للتوسع هو النمو الديمغرافي الذي جعل القصر القديم لا يسع جميع أفراد المجتمع، وعليه فملء المجال الإيكولوجي الواقع بين المركزين التاريخين: أ- القصر القديم، وب- الواحة التي تعتبر المنطقة الريفية والوجهة الصيفية لساكنة القصر القديم وما جاوره إلى عهد قريب كان حتمية ديمغرافية أدى إليها النمو السكاني أساسا، على أن التوسع لم يتوقف عند حدود الواحة وهي البيت الصيفي للمزابيين، فحتمية النمو الديمغرافي والتوسع العمراني قد انتهكت الكثير من خصائص الواحة التي تتميز بوفرة النخيل والبناء الطوبي البسيط لمنازلها، ما يجعلها أقرب لأن تكون حيا سكنيا حضريا **(عيسى ودادي، 2022)**.

وقد ترافقت بدايات التوسع العمراني خارج القصبة العتيقة مع الكثير من المتغيرات الخارجية منها ظهور التحديث الذي اعتمدته الدولة الوطنية بعد الاستقلال، اكتشاف البترول في الجنوب الجزائري الذي كان سببا في نقل مظاهر الحداثة إليه، وكذا ظهور المناطق الصناعية وهو ما يعني مراكمة الثروة ورأس المال، والتوجه نحو الرفاهية، وهو ما لم تعرفه المنطقة قبل ذلك، والتي كان تعيش على وقع الفلاحة وجريان الوادي الموسمي، فالتحديث فتح آفاقا عمرانية واسعة أمام الرأسمالي الصناعي ليبحث عن أسباب الرفاهية داخل وادي مزاب.

ذلك ما جعل من الأحياء الجديدة خارج القصبة العتيقة وفي مركزها إغوزة منطقة تجارب عمرانية فردية تعتمد الرفاهية أساسا في تشييد البيوت، بداية من الفناء الواسع والمرآب وصولا إلى المسابح والملاعب والمساحات الخضراء الواسعة، وكل الوسائل التكنولوجية المحدثة بما فيها المنتجات الحرفية التي تواكب المستجدات التقنية في البناء، وانتهاء إلى تكييف المحلات تناسبا مع المناخ المتطرف في المنطقة الحار صيفا والبارد شتاء، تكييف عبر تقنية الجدار المزدوج أو باعتماد المكيفات الصيفية والشتوية.

ومن الملاحظات على الحي هو التفاوت الطبقي، فحي إغوزة وماجاوره لم تسد فيه طبقة خاصة، وذلك بالنظر لتعدد كيفيات التملك كما تقّدم فضلا عن قدم المنطقة وتعدد نمط البناء المتراوح بين الضيق والسعة والكفائية والرفاهية، إذ يحدث أن تتجاور مساكن في شارع واحد مختلفة نوعيا، كدلالة على ما يحدث داخل أحياء إغوزة وماجاورها من تمازج طبقي، يتوازى أيضا مع ما يحدث من تصاهر بين الطبقات المختلفة للمجتمع، فهذا مؤشر على الوحدة الاجتماعية التي ما تزال موجودة رغم التشتت من الناحية الشكلانية، أي اللاتجانس الكبير في العمران المتعلق ببناء المنازل.

ويلاحظ أيضا عدم وجود ميل عام إلى نمط الفضاء المفتوح (Open Space) عند أغلب القائمين على بناء منازلهم، وذلك يعود حسب محدثنا إلى سواء قيمة الُحومة الاجتماعية-الدينية بمعنى الستر، ستر المرأة عن الانكشاف سواء داخل البيت بفصل بيت الضيوف عن مجال تحرك المرأة في المطبخ وبيت الغسيل وبهو البيت، وكذا عدم اعتماد فتح المطبخ على البهو باعتبار الحرمة الداخلية بين الأبناء وزوجاتهم، حيث الأسرة الممتدة في منزل واحد، أو الضيوف والضيفات من الأقرباء والأصدقاء، وكذا ستر المرأة عن العالم الخارجي باعتماد طريقة خاصة في هندسة مدخل البيت وبنائه، إذ يحاط باب المدخل بجدارين أحدهما من الطول بحيث تتعذر مشاهدة المارة والزوار للفناء أو البهو من خارج وعليه إلا بعد تجاوز الجدارين اللذان يشكلان مدخلا ثانيا بعد الباب، وانتهاء إلى اعتبارات الستر بين الجيران بخصوص النوافذ المطلة على الأفنية والساحات.

فقد قامت هندسة البيت المزابي بوصفها انعكاس لطبيعة العلاقة بين فضاءين، فضاء الأجانب عن المنزل يقع في جهة المدخل الخارجي للبيت، والفضاء الداخلي لسكانه، كما أن الفضاء الداخلي أيضا مقسم إلى قسمين للفصل بين الذكور والإناث **(Bellal and Brown،2007،p18 19)**، وهذا ما يسند نظرية بول هنري شومبار دو لو التي على فكرة أن البناء العمراني المادي

للمدن هو انعكاس عن طبيعة ثقافة المجتمع وقيمه، لذلك فمازالت القيم العمرانية القديمة تحتفظ بحضورها في الحدود الدنيا لدى الفرد المزابي خارج أسوار المدينة القديمة.

ومما تقدّم يمكن الخلوص إلى فكرة أن الجانب العمراني عرف تفككا كبيرا خارج الأسوار القديمة للمدينة وأصبح خاضعا للنزعة الفردية المطلقة بما يكون قد أنهى بشكل كبير أي تجانس خاصة عند الطبقات المستيسرة التي أصبحت تشيد البنايات دون النظر في تناسبها مع المنطقة من عدمه، حيث يتصور قاسم حجاج أن الاتساع العمراني داخل مدن مزاب عموما يمكن أن يفاقم مشكلة الاغتراب، وأن ذلك سيحول طابع المدينة من المدينة-العائلة التي تتشارك العواطف والمشاعر إلى مدينة متوسطة الحجم تضعف الترابط، وهو ما سيخلق مشكلة التكيف الذي يؤدي إلى خلل وظيفي في المجتمع الذي اعتاد منذ القديم على نمط مديني موحد **(حجاج، 2006، ص411 412)**.

في ذات الوقت الذي مانزال القيمة الرئيسة للعمران في حي إغوزة وما جاوره -وإلى جانب الرفاهية- هو "الُحرمة" الدينية والعرفية الحاضرة في التصميم الداخلي للمنازل، ذلك أن الحرمة الخارجية بين الجيران تعرف شدا وجذبا بسبب التعارض بين قيمة الرفاهية المنزلية التي تقتضي -مثلا- فتح النوافذ على أفنية الجيران وقيمة الحرمة التي تقتضي التحرز الشديد من انتهاك الستر، وبالتالي فإن اللاتجانس الحاصل يخفي هو الآخر قيمة رئيسة تحفظ التجانس كفكرة وليس كمظاهر مادية والتي يعبر عنها بأنها الستر والحرمة.

أما بخصوص حركة توسع المنطقة فإن الحدود الطوبوغرافية للمنطقة التي يقع فيها الحي تجعل من التمدد الأفقي غير ممكن، نظرا لكون منطقة محدود بالجبل من الجهتين الشرقية والغربية، وبالتالي فإن طبيعة المنطقة تفرض التوسع الخطي من الجنوب إلى الشمال، وهذا مع إمكانية اعتماد استراتيجية التوسع على سفوح الجبال، لما لها من إيجابيات متعلقة بربط المنطقة بالمناطق الأخرى وبالتالي تحدي الطبيعة في توسيع المدينة وربط أجزائها التي فرقتها الجبال ببعضها البعض، وهو في الوقت ذاته ابتعاد عن خطر فيضان الوادي، وهو الخيار الذي لا يبدو متاحا حاليا نظرا للعوائق الثقافية والإدارية.**III -**

النتائج ومناقشتها :

III.1- سيميائية المحلات التجارية والخدماتية: نمر فيما يلي إلى تحليل المعطيات التي حصلنا عليها على محلات عينة من الطريق الرئيسية للحي، حيث توصلنا إلى أن نسبة 82% من العينة المأخوذة لمحلات الشارع الرئيسي لحي أغوزة هي تجارية صرفة تتراوح تخصصاتها بين النفعي والكمالي كما يظهر في الجدول التالي:

جدول رقم 01: يوضح تصنيف المحلات حسب اختصاصها.

الرقم	اختصاص المحلات التجارية	النسبة%
01	محلات المواد الغذائية والخضر والفواكه والمطاعم والحلويات والأكل الخفيف	28.9
02	محلات التجهيز: كهرباء عقاقير مواد البناء والأدوات المنزلية	19.5
03	محلات الألبسة: أطفال نساء ورجال ولوازم الخياطة	12.5
04	النقل: محلات بيع واصلاح الدراجات والدراجات النارية واصلاح السيارات	8.5
05	المحلات الفنية: محلات الحلاقة وبيع العطور وتغليف الهدايا وتزيين المنازل وبيع الذهب والمكياج	7.8
06	محلات العقار: الوسطاء في البيع والكراء ومكاتب الهندسة والعمران والدراسات التقنية	6.2
07	المحلات الصحية: الصيدليات وقاعات العلاج والمصحات والعيادات الطبية الخاصة والعمومية	5.4
08	المكاتب والوراقات: محلات بيع الأدوات الدراسية والمستلزمات المكتبية والخدمات المرتبطة بها	3.9
09	الفلاحة: محلات بيع لوازم زراعة النباتات والأشجار وبيع الفسائل والأسمدة وغيرها	2.3
10	التربية والتكوين: المراكز التربوية ومعاهد اللغات والدورات التكوينية	1.5
11	النسبة الأقل لـ: 11- مكاتب إدارية، 12- مراكز الرياضة، 13- دور العبادة، 14- محلات الإعلام الآلي	0.7

يعطينا الجدول تصورا أوليا عن توزيع مجالات التجارة والخدمات في حي إغوزة وما جاوره، وسنحاول في التحليل، استنتاج العام من الخاص، أو الفصل بين ما هو قابل للتعميم على بقية المناطق في المدينة أو المجتمعات على مستويات عدة من المحلي وصولا إلى الكوني، وما هو تفريدي خاص بالمجمع المزابي ومدينة غرداية، أو هو مما تختص به منطقة الدراسة "حي إغوزة وما جاوره"، وهذا طموح لا ندعي الإحاطة به، لكنه إطار منهجي مفيد في الكشف العلمي السوسيولوجي عن الحقائق الفعلية في عينات البحث الاجتماعي، فغالبا العمومي يكشف عنه البحث الكمي أما الخصوصي فيكشفه البحث الكيفي كما نتصور، وقد مال بحثنا إلى الكيف مع استعمل التكميم على ذلك لضرورته في الإيضاح العددي، رغم أن الدراسة المورفولوجية تعتمد أساسا التحديد الجغرافي والطوبوغرافي، فضلا عن التحليل الدلالي (=السيميولوجي) الذي ينطلق من الثابت المتجسد عينيا، وهي في هذا البحث اللافتة، إلى المتحرك غير المنظور وهو: الثقافي والديني، القيمي والمعياري، الاجتماعي والنفسي الاجتماعي. بداية افتكت محلات بيع الطعام النسبة الأكبر بين بقية أصناف المحلات 28.9%، وهذا طبيعي بالنظر إلى درجة طلبه، فهو خاضع للاستهلاك اليومي، فضلا عن الديمغرافيا المتزايدة في الحي وما جاوره، وانتهاء إلى تحوله إلى قطب جالب للزوار من خارج الحي. وبعد تصنيف محلات بيع الطعام توصلنا إلى أن المطاعم ومحلات الحلويات التي يمكن اعتبارها ثانوية في الاستهلاك نجد أنها تشكل نسبة 37.8% من إجمالي محلات بيع الطعام ونسبة 10.9% من جملة محلات المنطقة التي أجري عليها المسح، على خلاف محلات المواد الغذائية والمخابز وبيع الخضر والفواكه التي تعتبر الممون بالمواد والأطعمة الاستهلاكية الرئيسية، فهي نسبة تؤكد تزايد محلات بيع الطعام أو المأكولات الجاهزة، وذلك يفارق التقليد السائد في الثقافة المحلية والمتعلق بتجهيز كل شيء في المنزل من طرف المرأة الماكثة، فالوجبات المنزلية اقتصادية وصحية من حيث التنوع والمكونات المستعملة في تحضيرها، وهذا ما يبدو أنه ينحو إلى انخفاض بفعل الميل إلى الطعام الجاهز لما فيه من نكهة مختلفة سواء ما تعلق بالعجائن (كالبيتزا والحلويات) أو اللحوم (كالدجاج المحمر والمشوي).

وهو في النهاية من مؤشرات اتجاه الثقافة الغذائية التقليدية إلى اللاتجانس، ومن هنا يمكن استنتاج أن الكلام على اللاتجانس أو فقدان اللاتجانس فهو في الغالب الأعم يشير إلى التخلي عن الثقافة المحلية التقليدية أو العرف الاجتماعي والتماهي مع أنماط أخرى منها المعولم ومنها المستمد من ثقافة أخرى مما لم يعولم، الأمر الذي حفز الافراد على تحدي "الواحدية الثقافية" والبحث عن حريات وعدالة أكبر في سياقاتهم الثقافية، والنتيجة هي أننا نجد اليوم في المجموعات الثقافية تنوعا كبيرا في طرق العيش دخل الثقافة الواحدة **(Sunder، 2001،p498).**

أما بيع المواد الغذائية والخضر والفواكه فيرتكز على معيارين أساسيين هما: 1- وفرة البضاعة، 2- أوقات العمل، فالواضح أن الزبون يفضل في تبضع المواد الغذائية المحل الذي يلبي كل الطلبات بما فيها الصغرى والهامشية، إذا في أحيان كثيرة تعمد محلات المواد الغذائية إلى بيع الخضار خاصة ذات الطلب والاستهلاك الكبير، أو حتى تستعين بمحل جار يبيع الخضر والفواكه، وذلك لنزوع الزبون عموما إلى الراحة في التبضع على حساب الأسعار، فضلا عن ذلك فإن تمديد فترات العمل مهم جدا بالنسبة للزبون، خاصة في الأوقات الثلاث: 1- الافتتاح المبكر صباحا، 2- الاستمرار ظهرا، 3- الإطالة ليلا، وفوق ذلك الاستمرارية والمداومة والانضباط، وهذا قد يقتضي تعدد الباعة في المحل وتداولهم على المداومة فضلا عن تطلبه لرأسمال كبير... وهو في النهاية لا يعتمد فقط على الوسائل المادية بقدر ما يقتضي ثقافة التزام، وهذا ما ينحو بالمتجر الساعي لجلب الزبائن للالتزام بهذه المعايير، وهو ما قد يتطلب أن يكون الباعة من عائلة صاحب المحل أو ممن يتلقون أجورا مقنعة، ولا يعدم حي إغوزة محلا بمثل تلك المواصفات وهو ذو صيت واسع، ويقع في قلب الحي وقبالة مسجده الجامع.

أما محلات التجهيز التي تبلغ نسبتها 19.5% بالمائة فتكشف نوعا ما عن خصوصية تتميز بها الثقافة المزابية، خاصة جانب "العقاقير والأدوات الحديدية" بما هو تجهيز لمستلزمات المنزل خلال البناء وبعده، فهي التجارة التي عرف بها المزابيون داخل المنطقة وخارجها، وهي ترتكز أساسا على التنوع والوفرة، تنوع البضائع وتوفرها، خاصة من الأغراض الدقيقة على غرار البراغي والمسامير بكل أحجامها وأنواعها وصولا إلى البضائع ذات الأحجام الكبيرة مثل السلالم والصهاريج، ورغم

توجه التجارة نحو الاختصاص إلا أن تجارة العقاقير والأدوات الحديدية المعروفة محليا بصيغتها الفرنسية "كانكايري" ما تزال حاضرة، فامتيازها أنها تجمع بين اختصاصات تجارية عدة مثل لوازم الكهرباء والترصيص والنجارة والحدادة، ومواد البناء وحتى بيع الأواني المنزلية، وفي الواقع هي اختصاص مفارق لتوجه المرحلة المعاصرة إلى الاختصاص عموما وفي الاقتصاد خصوصا، وهنا يطرح السؤال هل ستصمد تجارة "الكانكايري" أمام مد الاختصاص في التجارة؟

إن نسبة محلات العقاقير من جملة محلات التجهيز الأخرى هي 20% وتشكل نسبة 3.9% من مجموع المحلات، وهي نسبة منخفضة نسبيا، لكنها كيفيا تعد العمود الفقري للتجارة عند المزابيين رغم قلتها العددية، وتكشف عن جانب مهم في الثقافة المحلية وهو الوفرة، ومعناها خاصة هنا أن التاجر يوفر أكثر من مجموع طلبات الزبائن، بمعنى أنه يوفر "ما يجب" أن يتوفر، ويتجاوز "الواقعية" المعتمدة على انتظار الطلب. من مميزات -المنطقة وبلدة غرداية خاصة- استعمال الدراجات الهوائية والنارية، وذلك انطلاقا من صغر حجم المدينة وقصر المسافات بين مناطقها، فالمنطقة الشمالية للبلدة القديمة لا تتجاوز 07 كلم وهي الطريق الرابط بين القصبة القديمة وواحة غرداية، والتي تقع داخلها منطقة إغوزة، فضلا عن الأزقة الضيقة لمجمل مناطق المدينة، والملاحظة تفيد بأن الإقبال على استعمال الدراجات بنوعيها يعكس الروابط الاجتماعية الداخلية، فالدراجات الهوائية التي يكتسبها الأحداث غالبا خلال سن المراهقة تيسر تنقلهم بين الأقرباء وقضاء حاجات الأسرة مثل القيام بشراء الحوائج إلخ، على أنها أساسا تيسر تنقلهم من مدارسهم التي هي غالبا بعيدة نسبيا عن مقر السكن.

غالبا ما يتملك الدراجات النارية الآباء والشباب من الحرفيين والتجار وغيرهم، تيسر لهم الانتقال إلى عملهم و التنقل لقضاء حواجهم فالكثير منهم لا تفارقهم في كل تنقلاتهم، ليسر سياقتها وإمكان تنقلها خلال الأزقة الضيقة وعدم تطلبها لرخصة، ويمتلكها حتى أصحاب السيارات لاستعمالها عن التنقلات البسيطة، وذلك زيادة على سعرها المعقول مقارنة بالسيارات، الأمر ذاته الذي طور هذه التجارة التي تعتبر من مميزات المنطقة، حتى أصبح لها وكلاء حصريين من المختصين في استيرادها، فضلا عن تجارة قطاع غيارها ومحلات إصلاحها، ورواج سوق الدراجات النارية الكبيرة من النوعية الآسيوية دفع بمالكيها من المراهقين والشباب بإقامة احتفاليات استعراضية غير رسمية نهاية الأسبوع، مع ما تسببه من خلل داخل المدينة من ناحية أمن الطرقات والجلبة التي تحدثها في الطرق الضيقة.

III.2- أصناف المحلات التجارية ودلالتها:

جدول (02): يوضح تصنيف لافتات المحلات حسب جودتها الإشهارية.

الرقم	نوع اللافتات ومميزاتها	النسبة%
01	محلات بدون أي لافتة	13.2
02	محلات بلافتات مكتوبة دون أي شعار أو رسوم أو معلومات خاصة بالمحل صغيرة وقديمة غالبا	53.1
03	محلات بلافتات ملونة متوسطة أوكبيرة الحجم ذات شعار أو رسوم تحمل معلومات خاصة بالمحل	14.8
04	محلات بلافتات كبيرة وحديثة وألوان منجزة رقميا وذات حروف بارزة وبراقة	18.7

يوضح الجدول غلبة الاتجاه بالتزام قانوني نحو التاجر بضرورة وضع لافتة لمحله دون كبير اهتمام بالبعد الإشهاري للمحل، 53.4% من اللافتات البسيطة في مظهرها وغير المكلفة، وذلك دون انعدام العناية بالتسمية في حد ذاتها لكونها تعطي نظرة عن المحل وصاحبه، فالنسبة تفسر في الوقت ذاته النزوع العملي في النشاط الاقتصادي والاعتقاد بأن الإشهار الأفضل للمحل التجاري أو الصناعي أو غيرهما يكمن في تكوين "قاعدة تجارية" ذات سمعة من ناحية الوفرة والسعر والأمانة وغيرها من القيم التجارية العملية، وهذا يكفي لاستقطاب الزبون والنجاح الاقتصادي على الأقل في منظور وثقافة التاجر والسائد اجتماعيا بين المزابيين، فالنسبة تعبير عن تجانس ضمني ما يزال مترسخا في النفوس، وهو متمازج مع الثقافة الدينية السائدة خاصة عند الأجيال المتقدمة في السن.

بينما النسبة المتعلقة بالمحلات التي اعتمدت لافتات ذات بعد إشهاري واضح (الصنف الرابع في الجدول) فهي كلها حديثة جدا، ويعبر عن نزعة شبابية متصاعدة، والسؤال هل اعتماد لافتات ذات نزعة إشهارية فعلية تعبر مثل الصنف السابق، عن نزوع واعتقاد في الثقافة الاشهارية وفاعليتها، بمعنى أن اللافتة المميزة تجلب أرباحا إضافية؟ وما مدى كونه حقيقة فعلية؟ فالمفترض أن أن التاجر ذي النزعة الإشهارية قريب من ذوق الزبائن فيجذبهم إليه باللافتة وما ارتبط بها من قيم إشهارية رمزية أكثر منها فعلية؟ وهذا الواقع يعبر في كل الأحوال عن تحول في الثقافة التجارية التي هي العمود الفقري لمجتمع الدراسة.

على أن الملاحظ هو أن أغلب اللافتات ذات الجودة الإشهارية ذات اختصاصات مختلفة تتراوح بين محلات الملابس بكل أصنافها أطفال، رجال ونساء وهي أعلى نسبة في المحلات ذات لافتات من هذا الصنف الرابع 29%، ومحلات الحلويات وبيع الهواتف وغيرها، بينما يشكل الصنف الأول من اللافتات أغلب الاختصاصات بنسب متساوية.

3.III- سيميائية اللافتات :لافتات ذات عبارات وجمل عربية فصيحة بلغت 44.5% منها ما له دلالة دينية مثل: النعيم، الطيبات، الرضوان، البركة، النور، زمزم، الكوكب الدري، السراج المنير، وأخرى ذات دلالة اجتماعية مثل: حسن الاستقبال، صديق الحرفيين، متعة الأحبة، ففي هذا الصنف من اللافتات التي زاوجت بين العبارة العربية والاستعارة الدينية لتسمية المحلات وبالنظر إلى كونها تمثل النسبة الأكبر من التسميات يشير إلى ارتباط ساكنة الحي بالمضمون الديني سواء لصاحب المحل، للاعتقاد بأن التسمية الدينية جالبة للبركة وباعثة على الطمأنينة النفسية، فإن صاحب المحل ذاته يجد فيها إشهارا جاذبا مادام قد اعتمدها كترويج لمحله، ومن ثم فإنه يكون قد استقرأ في ساكنة الحي تلاؤما معها كما أنه نوع من الانسجام مع النمط الثقافي التقليدي السائد في المدينة، كون المجتمع المزابي مجتمعا دينيا بالأساس، وعليه يمكن اعتبار هذه النسبة وما ارتبط بها من دلالات مؤشر على انسجام مايزال صامدا أمام عوامل التفكك الثقافي، علما أن الأغلبية الساحقة من الباعة ومالكي المحلات هم مزابيون منحدرين من القصبة العتيقة لغرداية، ولعل الكثير منهم من الحي المدروس وما جاوره، دون إغفال توظيف اللافتة الإشهارية كجمع بين التبرك الديني وجلب للزبون في الوقت ذاته، وهي في النهاية تعبير عن اعتزاز وترويج للمنزع والمعتقد الديني والسمات الثقافية، وهذا ما يكن أن يكون "التفسير العام" لفلسفة اللافتات الإشهارية للمحلات التجارية وغير التجارية.

أما العبارة الاجتماعية بالعربية فهي ذات دلالة إيحائية أكثر واقعية لما تضفيه من شعور على قارئها والزبون بأن المخاطب قريب نفسيا وثقافيا من التاجر، والواضح أن اللافتة ليست موجهة للزبون فقط بل وظيفتها أنها تعطي للحي خاصة والمدينة عموما صورتهما، فهي صورة التاجر بالنسبة لساكن الحي وهي بالنسبة للأجنبي تعبر عن الحي والمدينة، وعليه فإن من الحقائق الأساسية أن اللافتة -كل لافتة- تأتي ضمن السياق الاجتماعي المكاني الذي هو الحي، والزماني الذي هو الحاضر، مع الأخذ بعين الاعتبار الثبات النسبي للافتة في الزمان والمكان، وعليه فالتعبير الاجتماعي على غرار "صديق الحرفيين" و"متعة الأحبة" يؤسس لعلاقة أرضية تاريخية وإنسانية بين التاجر وزبائنه.

اللافتات التي حملت الحروف اللاتينية بلغت نسبة 20.3% منها ما هو اختصار وإدغام CHOFROELECTROM : RAM MOTO، ومنها ما هو توصيف بسيط Alimentation Générale ، ومنها ما هو إسم علم مثل Amsterdam :، AFRICA،FAFFA-Fast-food، Istanbul، فاعتماد الحرف اللاتيني يعبر هو الآخر عن نزعة الفرد إلى الشعور بتقمص الثقافة التي تمثلها تلك الحروف باعتبار ما ترمز إليه من تقدم وتطور وحتى حريات وآفاق فكرية وثقافية، وكذا شعور بما تشكله من جاذبية للزبون على غرار تسميتي أمستردام وإسطنبول. وهنا لابد من التأكيد على التحرز من الحكم على مدى التصور النفعي لأصحاب المحلات بخصوص اللافتات، أعني هل يقصدون بها جذب الزبون أم يكتفون باتخاذها مجرد وسيلة أو فرصة للكشف عن ميولهم، فضلا عن كونها إلزام قانوني للتاجر كما تقدم ذكره، وهذا ما تقتضيه دراسة مستقلة، وعموما فإن حضور الحرف اللاتيني ليس موحد الغاية وهو ما تظهره مضامين العبارات، فاعتماد التعبير الفرنسي للمواد الغذائية العامة أو حروف الاختصار قد يكون سيرا على تقليد الماضي باعتبار اللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية الأولى سابقا، خلال الفترة الاستعمارية،

أو باعتبار الرموز اللاتينية أفضل للاختصار... وانتهاء إلى اختيار الكلمات الانجليزية كخيار يعبر عن النزعة العالمية في مجتمع محلي ما زال يحاور ذاته في الخيارات الثقافية التي يسلكها نحو المستقبل.

إضافة إلى ما قدره 5.4% من اللافتات المختلطة بين العربية واللاتينية مثل السلطان kids، فن الصباغة العصرية Smart Deco، ولعل أول ما يتبادر إلى الذهن من قصد الجمع بين اللغتين هو محاولة التاجر التسوية وإرضاء الأذواق، وهو تأكيد ضمني غير قصدي على الازدواجية السائدة، والجمع بين التراثي والحديث، والنسبة القليلة تعبر عن هامشية هذه النزعة من جهة، لكنها تكشف عن حضور اللاتجانس ليس الاجتماعي بحيث الاختلاف في الأذواق والقناعات الفردية، لكن اللاتجانس في اللافتة الواحدة يكشف عن لا تجانس نفسي في الفرد ذاته، كما قد يكشف عن قدر من اللامبالاة الثقافية والواقعية والتفكير الطبيعي والابتعاد عن الايديولوجيا دينية كانت أو ثقافية، والاعتقاد أن المنفعة الربحية للبائع والزبون هي كل شيء.

وأخيرا اللافتات المكتوبة باللسان المحلي المزابي منها ما كتب بالحرف العربي ومنها باللاتيني وبلغ 3.1 مثل: تالويت، تضفي نتمورت، قصابة تتميرت، AZDAR، أما اللافتات المكتوبة بالحرف الأمازيغي فبلغت نسبتها 1.5، من المهم التمييز بين استعمال الكلمة المزابية في تسمية اللافتة بالحروف العربية أو نظيرتها اللاتينية وبين تسميتها مباشرة بالحرف الأمازيغي، فالأولى قديمة ومتداولة، والثانية محدثة، حيث الواضح أن التسمية بالمزابية بحروف عربية أو لاتينية تتجه إلى زبائن الحي وساكنة المدينة عامة، وهي بمثابة علامة مسجلة حتى لغير المزابي لحفظها بإدراك معناها أومن دونه، بينما تعتمد التيفيناغ كتأكيد هوياتي أكثر منه مخاطبة للزبون بما فيهم ساكنة الحي والمزابيين، فالمعلوم أن الحرف الأمازيغي رمز محدث وهو إلى اليوم قليل التدريس للناشئة، إذ يقتصر فهمه على المختصين وأساتذة اللسان الأمازيغي.

أما المحلات التي استغنت تماما عن اللافتات فبلغت 14%، هذا يشير أكثر ما يشير إلى عدم الاهتمام بالواجهة وإهمال الرمزي عموما عند شريحة مهمة من التجار كما تشير إلى ذلك النسبة الواردة، فضلا عن لامبالاة بالقانون، ويمكن سحب ذلك بحذر أيضا على الثقافة التي ينتمون إليها، وهي من جانب آخر تعبير عن واقعية التاجر، والابتعاد عن الادعاء الذي قد تحمله اللافتة بما لا يعبر بالضرورة عن الحقيقة، وربما قد لا يرد ذلك في أذهان المستغنين عن اللافتات وقد تكون عوامل أخرى ألغت إمكان وضع اللافتة، وعموما فإن نسبة 14% على قلتها هي من الناحية الكيفية ذات دلالة على مدى النفعية عند ذهنية البائع بالحي، وكذا عن الابتعاد عن الادعاء الذي قد يزيف الحقيقة بوصف اللافتة مجرد إشهار، والمعلوم أن الثقافة الإشهارية ذات مصدر رأسمالي حديث، وهو ما يتعارض مع منطق الرتابة والفاعلية التجارية التي تعتمد على خدمة الزبون المحلي، قبل أن تظهر نتائج التحديث التي جعلت التاجر المحلي في مزاب ينفتح على الزبون الأجنبي بمستويات الأجنبية من الأحياء والمناطق المجاورة ومن مختلف مناطق ومدن الوطن وحتى من خارجه.

III.4- سيميائية اللباس: يعدّ اللباس نظاما من العلامات والرموز كأحد المواضيع التي نتواصل بها مثل غيره من الأنظمة السيميائية كالأكل والإيماءات والسلوكيات والمحادثات، نال الكثير من الاهتمام من قبل العديد ن الباحثين منذ أكثر من نصف قرن لعلّ أبرزهم السيميائي الفرنسي رولان بارت وخصوصا في كتابه نظام الموضة .«Système de la mode» فالملابس والزي الذي نرتديه لا يُستخدم فقط للتستر وحماية النفس، ولتجميل الذات، ولكن أيضًا لتبادل الرموز والمعلومات. هنا يتصور بارت أنّ اللبّاس لغة وهي لُغة يتكلّمها جميع الناس وفي نفس الوقت لا يعرفونها جميعا" **(Olivier, 1996 ،100 p81)** يعني أنّ اللباس يمكن أنْ يُنظر إليه على أنّه وسيلة كونيّة في التّواصل، غير أنّ لكلّ جماعة لباسَها الخاصّ بها مثلما لها لغتها الخاصة بها كلغة تعبير وتواصل ووسيلة للتجانس الثقافي.

من حيث اللباس يعرف مجتمع مزاب باللباس التقليدي الرجالي والنسوي، فالرجل يلتزم لبس "سروال عرب" التقليدي المحدّث، وبالنسبة للمسجد يلتزم الرجال تقليديا بالعباءة والطاقية الأبيضين، والنساء يلتزمن الحائك الأبيض، الزي الذي يميز لونه الموحد إلى الوحدة والتجانس وهو إضافة إلى ما يحمله من وظيفة الستر يحمل أيضا دلالات إيحائية ورمزيّة نحو "

الاحتماء والدفاع" يمكن أن نقرأها في طريقة ارتداء المرأة للحائك "تموضع اليدين في وضعية دفاعية" إنها علاقة " صون وحماية" نفعية متبادلة؛ و صون الزي للمرأة من التهديدات الخارجية و صون المرأة للزي من الاندثار. وهو ما لا نلاحظه كحالة قارة في الشارع الرئيسي لإغوزة وما جاوره، فبالنسبة للرجال لم يعد السروال العربي هو المهيمن فأصبح السروال الأجنبي (فرنسيس) متواجدا كموضة يفضلها المراهقون والشباب أو البدلات المهنية التي يفضلها أصحاب الحرف، بالنسبة للنساء فإن الحائك الأبيض لم يعد الوحيد وإن كان ذلك متأخّرا نسبّيا في الزّمان عن تغير لباس الرّجال حيث أصبح الحجاب أو الخمار يتاخم الحجاب التقليدي، فرغم أنه يفرض في مدارس التعليم الديني التي ترتادها أغلبية فتيات إغوزة وماجاوره من أحياء إلا أن الحجاب الحديث أصبح متواجدا بكثرة سواء النساء العاملات أو غيرهن وخاصة طالبات الجامعة. وهنا يمكن أيضا تحليل مدى تأثير التوسّع الحضري وكثرة التنقل خصوصا على "الجانب العملي والمريح" للأزياء الوافدة مقابل كل من الزيين التقليديين بعدما كان يمارس في فضاء ضيق نسبيا.

من حيث اللباس يعرف مجتمع مزاب باللباس التقليدي الرجالي والنسوي، فالرجل يلتزم لبس "سروال عرب" التقليدي المحدّث، وبالنسبة للمسجد يلتزم الرجال تقليديا بالعباءة والطاقية الأبيضين، والنساء يلتزمن الحائك الأبيض، وهو ما لا لاحظناه كحالة قارة في الشارع الرئيسي لإغوزة وما جاوره، فبالنسبة للرجال لم يعد السروال العربي الطابع هو المهيمن فأصبح السروال الأجنبي (فرنسيس) متواجدا كموضة يفضلها المراهقون والشباب أو البذلات المهنية التي يفضلها أصحاب الحرف، بالنسبة للنساء فإن الحائك الأبيض لم يعد الوحيد حيث أصبح الحجاب أو الخمار يتاخم الحجاب التقليدي، فرغم أنه يفرض في مدارس التعليم الديني التي ترتادها أغلبية فتيات إغوزة وماجاوره من أحياء إلا أن الحجاب الحديث أصبح متواجدا بكثرة سواء النساء العاملات أو غيرهن وخاصة طالبات الجامعة.

والثابت أن التحولات الحاصلة من الزاوية الانتروبولوجية جعلت من الحجاب هو الأصل المشترك بغض النظر عن شكله، فالشكل التقليدي للستر هو الحائك الذي يغطي المرأة كلية ولا يظهر إلا قامتها وعرضها، بعكس الحجاب المحدث الذي يكشف عن الوجه واليدين بالضرورة، وهذا ما يلغي التجانس في حجاب المرأة فالحجاب المحدث المكون من الخمار والقشابية إضافة إلى "العجار" الذي يغطي الوجه بالنسبة للمرأة المتزوجة، وذلك من حيث إمكانية التنويع الكبيرة في الألوان والأشكال، وهذا انخفاض واضح في درجة التجانس في زي المرأة خارج بيتها، أي الحجاب، وهذا ما فتح نقاشات على المستوى الفقهي من حيث كون الفقه لم يحدد طريقة الحجاب إنما الأمر متعلق فقط بعرف اجتماعي يمكن إعادة تكييفه، فمقصد الحجاب أنه يؤدي مقصد الستر والأمن من الفتنة، بالتزام الفتاة بالضوابط الشرعية التي يمكنها من أن تمارس حقها في العمل، مما يمكنها في الإسهام في التنمية **(حفار، 2011، ص52 53)**، وهي مؤشرات على التحول الحاصل في المجال الفقهي الذي يعتبر مرجعية يستند إليها بديلا عن العرف بشكل متزايد.

زيارة الحي من خارجه يزيد من تنوع الزي فيه ولو نسبيا، وهذا ما لا نجده مثلا داخل القصبات العتيقة، إلا ما كان زيارات سياحية مهيكلة، وتحت إشراف مؤطرين سياحيين حيث يشترط عليهم حد أدنى من اللباس الساتر في اللافتات، وعلى ذلك لم يعد يخلو من مظاهر اللباس المحدث البنطلون الأوروبي (الفرنسيس) أو الحجاب النمطي الحديث (القشابية) وهوما يعني اقتحام اللاتجانس للقصبات العتيقة أيضا، وهو لا يتوقف على اللباس فقط إنما سيشمل بالضرورة الجوانب الذوقية والاختيارات الشخصية، واللباس مؤشر عليه، مادام اللباس والمظهر يعد من الجوانب المهمة في الثقافة المزابية إذ ستمد من العرف الاجتماعي والمقدس الديني، فهو بذلك مؤشر على ضعف درجة التجانس الثقافي على المستوى الأصغر، بمعنى أن الاختلاف والتعدد يقتصر على كيفية الحجاب ومظهره لا على الحجاب ذاته الذي يعد فريضة دينية لا يفرط فيها في الداخل المزابي، أو على الأقل في غالبيته الساحقة.

IV- الخلاصة:

IV-1 ملامح الثقافة الجديدة بين التجانس و اللاتجانس: قد يكون من المجازفة الانتهاء إلى محاولة تحديد خصائص الثقافة الجديدة التي ترسي سماتها في منطقة الدراسة، خاصة وأنه قد تبين أن المسألة الثقافية تمر بمرحلة انتقالية طويلة المدى، لكن وعلى ذلك يمكن الانتهاء إلى تحديد السمات الأساسية التي تكون قد ترسخت كثقافة اجتماعية حضرية في منطقة الدراسة.

فرغم بروز مؤشرات قوية على انتقال الثقافة المحلية حضريا وإثنيا إلى حالة من اللاتجانس إلا أنها مازالت تحتفظ في عمقها بتجانس خفي غير ظاهر نفترض أنه متأسس على معطى "التجانس الفيزيولوجي" -الناتج عن الزواج الداخلي- الذي يضمن استمرار التجانس الثقافي، فمادام العامل الفيزيولوجي قائما فإن اللاتجانس الثقافي، الذي هو غالبا مرحلة انتقالية في المجتمعات لإعادة الرسو مجددا على قواعد ومعايير جديدة، سيؤول في النهاية إلى نفس المبادئ التكوينية للجماعة المرجعية الأولى مادامت حاضرة باستمرار عبر "التجانس الفيزيولوجي".

يصف سوندر الوضع الثقافي الراهن على المستوى الكوني بأن ما يحصل فيه من تحول هو دليل "انشقاق ثقافي" ينتج عن تحدي الأفراد من أجل التحديث، أو العمل على توسيع مفهوم الانتماء إلى الثقافة التقليدية، والأهم هو أن عملية إعادة تعريف القيم الثقافية تخضع لميول فردية تشترك في كونها ترفض موقف المفاضلة بين التقليدي والحديث، فهما مرغوبان **معا (Sunder ، 2001، p498)**، وفي هذا الإطار العالمي من التحول، كيف أن يكون التجانس الفيزيولوجي عاملا على ضمان التجانس الثقافي الخفي؟

المؤكد أن الشعور الجمعي يستوعب جيدا التحولات الحاصلة في واقعه، خاصة تلك المتعلقة بالجانب الفيزيقي للمجال الحضري، فضلا عن التحول والتشتت الفكري الذي أصبح من المسلمات، لذلك فإن السلوك الطبيعي للعقل الجمعي، الإثني الطابع، سيبحث له عن تأويلات ترأب الصدع، مجرد تأويلات حتى مع عدم يقينيتها، لأنها محكومة بعامل الرابطة الاجتماعية الناشئة عن التصاهر الداخلي الذي يضمن التجانس الثقافي العميق، وهنا ستقوم مؤسسات الإنتاج وإعادة الإنتاج الفكري والتربوي بوظيفتها الأيديولوجية في ضمان أكبر قدر من التجانس الفكري الداعم للتجانس الفيزيولوجي، بينما يستقل العامل الثقافي الخاضع للتأثيرات التاريخية والبيئية غير المتحكم فيها ليشكل "حالة من اللايقين" في ضمان التجانس، الذي قد ينفرط عقده في أي لحظة تحت تأثير الرغبات والسلوكات الفردية والجماعية في معايشة تجربة اللاتجانس في شقيها الأيديولوجي أو الفيزيولوجي بكل دوافعها ونتائجها الاجتماعية باعتبارها ممكنات غير مستحيلة.

- الإحالات والمراجع :

(*) - يستثنى من ذلك الحالات الطارئة التي تتسبب فيها الكوارث الطبيعية والحروب من تغيير جذري في طبيعة ونمط التوزيع السكاني وبالتالي في الشكل المورفولوجي للمجتمع في المناطق المتضررة.

(**)- المقصود بالمجتمعات غير الحديثة هي تلك التي لم تشهد المخاض التاريخي للمجتمعات الأوروبية وهو تمثل في الثورات العلمية والدينية والفلسفية والسياسية والصناعية، واكتفت بتلقي نتائجها التي فرضتها الرأسمالية الصناعية منذ أكثر من قرنين، وعليه فإن الموضوعي أن يكون أثر تلقي مجرد "نتائج الحداثة" المادية والرمزية مختلف تماما عن أثر معايشة مخاض الحداثة ذاته، إذ وبغض النظر عن أصالته عند الأوروبيين وثانويته عند غير الأوروبيين، فإن نتائج الحداثة عند غير الأوروبيين لم تهدم كل النمط القديم عندهم ولم تنتج نمطا جديد ومتجدد، فلا نتائج الحداثة ولا محاولات الاستعمار هدم بنائها التقليدي، كل ذلك كان محاولات مصطنعة وليست تحولا ذاتيا أصيلا، وذلك ما يجعل من المجتمعات غير الحديثة ذات نمط اجتماعي مختلف تماما عن نظيرتها في مجتمعات الحداثة الأوروبية.

1- موريس هالبواك. (1986). **المورفولوجيا الاجتماعية** (الإصدار الطبعة الأولى). (حسين حيدر، المترجمون) بيروت، الجزائر: منشورات عويدات، ديوان المطبوعات الجامعية.

2- محسن بوعزيزي. (2010). **السيميولوجيا الاجتماعية** (الإصدار الطبعة الأولى). بيروت: مركز دراسات الوحدة الاجتماعية.

3- عبد الغني عماد. (2007). **منهجية البحث الاجتماعية: الإشكاليات، التقنيات، المقاربات** (الإصدار الطبعة الأولى). بيروت: دار الطليعة.

4- موريس أنجرس. (2004). منهجية البحث العلمي في العلوم الإنسانية: تدريبات عملية (الإصدار الطبعة الأولى). (بوزيد صحراوي وآخرون، المترجمون) الجزائر: دار القصبة للنشر.
5- موقع ويكيبيديا. (بلا تاريخ). **ولاية غرداية**. تاريخ الاسترداد 20 01, 2022، من ويكيبيديا: https://bit.ly/3gXuvER
6- حسن عيسى و دادي. (17 02, 2022). **مقابلة استطلاعية**. (محمد عبد النور، المحاور)
7- قاسم حجاج. (2006). **مزاب: رؤية مستقبلية مع مدخل إلى قضايا المستقبليات** (الإصدار الطبعة الأولى). غرداية: العالمية.
8- زهراء حفار. (2011). **خروج الفتاة المزابية للعمل**. غرداية: مكتبة الكتاب العربي.

9- Madhavi Sunder .(2001 ,12) .**Cultural Dissent** .Stanford Law Review.567 475 ،(3)54
10- Leo F. Schore. (May, 1958). **Social Morphology and Human Ecology, Emile Durkheim George Zimmel 1858-1958**. American Journal of Sociology63 ،(634 620) .
11- Omori Maho Farquharson Karen. (2009). **Cultural Homogeneity in Australia and Japan**. Swinburne Research Bank03 ، https://bit.ly/3KEPTfp
12- Taher Bellal، و Frank E Brown. (2007). **Spacial Structure of the M'zabite: Family and Geder**. Journal of Archetector and Planing Research24 ،(1)22 1 .
13- Olivier, B. (1996). **Barthes et le vêtement**. communication(63), 81 100.

- ملاحق :

الجدول 3: إحصاء تقديري لسكان منطقة إغوزة وما جاورها لسنة 2020

الحي	عدد السكنات	عدد السكان
1- حي عوفية	848	3217
2- حي كركورة	1800	10476
3- حي صلوحة	2883	13053
4- حي بلغنم	2238	11239
5- حي الشواهين	1989	10614
المجموع	9758	48599

المصدر: مصلحة السكن بلدية غرداية

الشكل (1)– صورة جوية لمنطقة إغوزة وماجاورها

المصدر: تطبيق غوغل إيرث (شوهد يوم 2021/11/20)

الشكل (2) : مخطط منطقة إغوزة وماجاورها.
مجتزأ من المخطط العام لمدينة غرداية المنجز من طرف مصلحة المخطط التوجيهي للتهيئة والتعمير (PDAU) المنجز سنة 2009

المصدر: مصلحة السكن، بلدية غرداية

كيفية الإستشهاد بهذا المقال حسب أسلوب APA **:**

محمد عبد النور، عائشة نجار، (2022)، **أثر التوسع العمراني على التجانس الثقافي في المجتمعات المحلية (**دراسة مورفو -سيميولوجية لحي إغوزة والأحياء المجاورة له بمدينة غرداية) ، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية ، المجلد 14(02)/ 2022، الجزائر : جامعة قاصدي مرباح ورقلة ، ص.ص 185- 198.